لمـاذا اضطهـدت السُـلطة العثمانية المراكـز العلميّة

فـي " جبـل عامـل "

الشيخ د. جعفـر المهاجـر

(١)

شهـد الربع الأول من القرن العاشـر الهجـري / السـادس عشـر الميلادي تبـدّلاً أسـاسـياً وشبه تام في الصورة السياسـيّة للعالَـم الإسـلامي . ففي الوقت نفسـه تقريباً ظهـرت الدولـة الصفويّـة ، وقضـت علـى ملوك الطوائـف ، ووحّـدت " إيـرا ن " فـي حدودها التاريخيّة التي كانت عليها أيام السـاسـانيين تقريباً . وبسـطت الدولة العثمانيّـة سلطانها علـى المناطق الإسـلاميّة في " آ سية " و " إفريقيـا " . ولم يبـقَ خارج هذه الاستقطاب الثنائي إلا الجيوب الإسـلامية في شبـه القارّة الهنـديّـة . وتلك هي الصورة التي استمرّت حتى الحرب العالميّة الأُولـى .

لقـد كُتـب الكثير علـى المسـألة السياسيّة من الموضوع . لكن المسـألة الثقافيّة منه لم تحـظَ إلا بقـدر قليل من العناية . ربمـا لأنها أكثر تعـقيداً بكثير . فضلاً عـن أن مصـادر دراسـتها موزّعـة بين كُتُـب السِّيرة والفقـه والأدب . ممّـا يقتضي خبـرة فـي مكتبة كلٍّ مـن هـذه الموضوعات . أمّـا المسـألة السياسـيّة فإن مصـادرها الأسـاسـيّـة تكـاد تكـون محصورة في المكتبة التاريخيّة . أضِـف إلى ذلـك أننـا لم نتحـرّر بعـد مـن فكـرة سُـلطويّة التاريخ ، ولـم نقتـرب إلى حـدّ كـافٍ مـن مقولـة أ ن الإنسـانِ ، الإنسـان العادي ، هـو الصـانع والمالك الحقيقي للتاريخ وسـيّده وموضوعه في آنٍ معـاً .

كلا الدولتين دخلت ميدان السياسـة حاملة معها إرثها الثقافي . وكلتاهما منحت إرثها لوناً ومعنىً مذهبياً . وكما يحصل دائماً بين كيانينِ سياسـيين من مثل هذين ، فقد نشـبَ بين الدولتينِ المتجاورتين صراع ، سياسـي دائمـاً ، وعسكري أحياناً . لكنه اتخذ دائماً عنواناً مذهبياً . لأن لا عـقيدة عسكريّة من دون سـند فكروي ، يقول ما هو الحق وماهو الباطل ، وما هو العدل وما هو الظلم ، وما هو الصحيح من الخطأ .

الشاه إسماعيل الأول الصفوي ، أول شاهات الصفويين ، أعلن من " تبريز" ، قبل أن يبدأ زحفه غرباً باتجاه الهضبة الإيرانيّة ، أن المذهب الوحيد المقبول في منطقة حكمه هو المذهب الشيعي الإمامي . وهـذا تعبير صادق إلى حـدّ بعيد عـن إرث بيتـه الصفوي . كما أنه ثا لث محاولة من نوعها في تاريخ " إيـران " . والثالثـة ثابتة ، كما تقول الأمثال الشـعبيّة . سبقتها محاولة محمد خُدابنـده المغولي ، ثاني حُكّام " إيران " الإيلخانييـن (٧٠٣ ـ ٧١٦ هـ / ١٣٠٣ ـ ١٣١٦ م) . ثم محاولـة علي بن المؤيّـد ، آخر حكّـام " خراسـان " السربداريين (٧٦٦ ـ ٧٧٨ هـ / ١٣٦٤ ـ ٧٧٦ م) . وما مـن ريـب في أ ن لهـذه الملحوظة مغزاهـا ، الذي يتصل مـن جهـة بحقيقة شـعبيّة حيّة وفاعلة ، ومن أُخـرى بحاجة الحاكم إلى تصفية المزيج المذهبي المتنافر لمصلحة بديل أكثر تجانسـاً . وبذلك يجعل مهمته في الحكم أكثر سـهولة بما لا يُقاس .

أمّـا العثمانيّون فإن حكايتهم مختلفة مع المسـألة المذهـبيّة . لقد بـدأت علاقتهم بالإسلام بدايـة عنيفة جدّاً . بحيث أن مَن يُسـمّون في كُـتُـب التاريخ العربيّة بالهياطلة ، وهم أتراك " آسية الوسطى " وما والاهـا ، ظلّوا في حـرب دائمة مع المسلمين لمـدّة تناهـز الثلاثة قرون . لكنهم أخيراً اكتشـفوا أن مسـالمة المسلمين أجـدى وأعـود عليهم من محاربتهم ، وأن الحياة في كنفهم هي أفضل بكثير من معاناة الفقر في تلـك السهوب الجدباء . وذلك بالدخول في خدمة المسلمين بصفة جنود مرتزقة ، أو حتى ببيع أبنائهم ليكونـوا جنوداً عـندهـم في المسـتقبل ، حيث قد يصلون إلى أعـلى المراكـز . وهـكذا دخلوا في الإسلام أفواجا . ثم كان منهم الأتراك الذين ارتحلوا إلى " آسية الصغرى" ، وأسـسـوا إمارة تحـت شـعار نشـر الإسـلام في رقعـة الدولـة الروميّة ، هـي نفسها التي غدت فيما بعـد إمبراطوريّة كبرى ، هي الدولة العثمانيّة .

لكنهم حتى في هـذا ، فإن وضعهم لم يخلُ من إشـكاليّة . ذلك أ ن دخولهـم في الإسـلام حصل على المذهب الحنفي ، وعليه اسـتمروا ، وما زالوا حتى اليوم . ولسـنا نعرف لهـذا سـببا ، وبقدر اطلاعي فإن هـذا الموضوع لم يُبحث كإشـكاليّة مسـتقلّة . المهم بالنسبة لِمـا نعالجـه في هـذا البحـث ، أنهـم بعـد أن أصبحـوا الدولـة الإسـلاميّة الكبرى لم يكن لديهـم أي خبرة في التعامل مع الشـأن المذهـبي البالغ التعقيد . فحصروا تعاملهم مع مذهبهـم . ومن ذلك أنهـم ألغوا منصب القضاء لدى غـيره من المذاهـب ، وفقاً لِمـا كان معمولاً به منذ أن أقـرّه الظاهر بيبرس أول سـلاطين المماليك (٦٥٨ ــ ٦٧٦ هـ / ١٢٥٩ ــ ١٢٧٧ م) . ومـن أطـرف الظـواهـر ذا ت الصلة بهـذه السياسـة تحـوّل أعـداد من الفقهاء في " الشـام " و " مصـر " ، بعـد الفتح العثماني لهـما ، إلـى المذهـب المحظـوظ ، كيمـا يصلوا حظوظهـم بحظّـه الصاعـد . ممّـن نجـد ذكـرهـم فـي (الكواكب السـائرة) للغـزّي و (خلاصة الأثـر) للمحبّي .

(٢)

ذلك الذي سـمّيناه في المطلع : التبدّل الأسـاسـي في الصورة السياسـيّة للعالَـم الإسـلامي ، سـقط بكامل ثقله عـلى رأس المراكز العلميّة التي كانت عاملة في " جبـل عامل " جنوب " لبنـان " . ذلك أنه بدخول " الشـام " في حوزة العثمانيين ، صـاروا من رعايا الدولة العثمانيّة . لكنهم بالنظر إلى مذهـبهم عوملوا من قِبَـل حكامهم الجُـدُد لبلادهم بوصفهم من أتباع مذهـب العدو الصفوي . ويجب أن نعتبر ذلك تبدّلاً أسـاسـياً في المناخ الذي عـملت فيه هاتيك المراكز مـدّة قـرن ونصف تقريباً حتى ذلك الأوان . ويحسُـن بنا في هـذه المرحلة مـن البحـث ، أ ن نورد تعريفـاً سـريعاً بتلـك المـراكـز ، وبالمناخ الذي عملت فيه .

ففي أواسـط القـرن الثامـن للهجـرة / الرابـع عشـر للميلاد ، بدأت فـي " جبـل عامل " نـهضة عـلميّة ، فيها دراسـة وتدريس وتصنيف وتجـديـد فكـري . يبـدو أنـهـا أتت ارتكاسـاً عـلى الاسـتلاب الثقافي الكامل ، الذي ارتكبه المحتلّون الصليبيون ، إبّـان حكمهم الطويل للجبل ، الذي طال أقلّ قليلاً من قرنين من الزمان . حيث قطعوا أهـلـه عـن كل مصادر المعـرفة ، وعاملوهـم معاملة الأرقّـاء الأقنـان . يملكهم عـمليّـاً مالـك الأرض ، ويُسـخّـرهم فـي الإنتاج . وعـلى هـذا نشـأت أجيال بعـد أجيال مـن أهليه ، تولـد وتحيـا وتموت لغيـر ما غـايـة ، إلا تلك الحياة الزريّـة التي لاأُفُـق لها .

ولكن ما إن بدأت تظهر للعيان إمارات هزيمة المشروع الصليبي ، حتى بدأت فيه حركة علميّة صغيرة ، استمرّت تعسعس نحو قرنين من الزمان . إلى أن جعل منها بطل النهضة محمد بن مكّي الجزيني (ق : ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤ م) حركة علميّة كبرى . وهكذا ظهر على الأطراف الغربيّة لـ " جبل عامل " أول مركز علمي ، في بلدة " جزّين " . خرّج عشرات العلماء ، ممّن ما تزال أعمال بعضهم حيّة حتى الآن ، في مدّة لا تزيد على الربع قرن . وتتابع من بعد ظهور المراكز فيه مركزاً بعد مركز : " عيناثا " و " ميس " و " الكرك " و " مشغرة " وأخيراً " جُباع " . وقد حكينا تاريخ هاتيك المراكز بأقصى ما وسعنا من تفصيل في كتابنا (جبل عامل بين الشهيدين) ، الذي سيصدر عن (المعهد الفرنسي لدراسات الشرق الأوسط) في " دمشق " .

والحقيقة أن هذه النهضة ما كان لها أن تحدث ، لولا مُناخ الحريّة التامّة الذي تمتّعت به تحت حكم المماليك الشراكسة . لا عن إيمان من هؤلاء بالحريّة الفكريّة ، ولا عن ممارسة واعية لها . كل ما في الأمر أنهم كانوا جنوداً جاهلين . كل همّهم محصور في حراسة امتيازات الطبقة العسكريّة التي يمثلونها . ولذلك فإنهم تركوا أمر الثقافة وبلبالها لأهلها . لا يكترثون لها ما دامت ودام أهلها بعيدين عن الحدود المحروسة بدقّة للسلطة وأهلها .

أمّا العثمانيون فقد كانوا على غير ذلك تماماً . ولقد وصفنا حالهم قبل قليل ، وقلنا ما يكفي عن حدّيتهم في شأن المذهب . وكيف أنهم لم يعرفوا الإسلام إلا على المذهب الذي يعملون به . فكيف بمَن هو عندهم مذهب العدو أو المذهب العدو . وهذا يصلح جواباً على نحو الإجمال على السؤال المطروح في عنوان البحث .

لكن التأريخ تفاصيل ، على صورة الواقع الذي حصل . ولذلك فإننا نعتقد أن السؤال مع ذلك ما يزال مطروحاً . فلماذا اضطهد العثمانيون تلك المراكز ، وماذا حصل بالضبط ؟

(٣)

إن الأسباب المُعلنَة للاضطهاد الديني ، تتصل بمفاهيم الحق والباطل والهدى والضلال . والزعم بأن الطرف المُسيطِر يملك كامل الحق والهدى ، في مقابل أن الآخَر المُسيطَر عليه على باطل وضلال . والاضطهاد قد يأخذ شكلاً معنوياً ، قد ينتهي إلى التكفير والإخراج من الملّة . كما أنه ربما يأخذ شكلاً مادياً ، باضطهاد المُسيطَر عليه ، بحرمانه من كافة حقوق الموا طنيّة (الرعويّة ، حسب التعبير العثماني) . وقد تصِل الأمور إلى حدّ التقتيل الفردي أ و الجماعي . وهناك ما لا يُحصى من الأمثلة على ذلك .

بالنسبة للعثمانيين خصوصاً ، فقد حدّد نظام المِلَل ، منذ السلطان محمد الثاني ، المعروف بالفاتح (٨٥٥ ـ ٨٨٦ هـ / ١٤٥١ ـ ١٤٨١ م) علاقة السّلطة بغير المسلمين (أهل الكتاب) فسمح لهم بالحِفاظ على عقائدهم ، وبممارسة شعائرهم الدينيّة ، ومنحهم الحماية بوصفهم رعايا للسلطان . شرط أن يدفعوا الجِزية عن رؤوسهم والخراج عن أراضيهم . وهذا نظام نجد أصله في الشريعة الإسلاميّة .

لكن علاقتهم بالمذاهب الإسلاميّة لم تكن بتلك المثابة من الوضوح . فقد اعترفوا بالمذاهب الثلاثة ، غير مذهبهم الحنفي طبعاً ، ولكنهم ، كما عرفنا ، حصروا المناصب الدينيّة بأرباب مذهبهم . ورفضوا رفضاً قاطعاً الاعتراف بالمذهب الشيعي الإمامي . كما حظر على أتباعه ممارسة شعائرهم الدينيّة علناً . إلا في بعض المنطق الداخليّة البعيدة عن نظر رجال السلطة ، ومنها " جبل عامل " .

لسنا نملك معلومات كافية عمّا اضطرب فيه رجال المراكز العلميّة في " جبل عامل " غداة الاحتلال العثماني . وذلك لضعف التسجيلات التاريخيّة . من الجانب المحلّي بسبب فقدان الاهتمام بهذه التسجيلات أصلاً ، وانشغال مثقفيها بأمور هي عندهم أجدى وأعود . أمّا من جانب السَّلطة ، فلأنها لا تنسجم مع هويّة أي تاريخ سُلطوي . وخصوصاً لأن لا مصلحة لأي سُلطة في تسجيلات كهذه .

لكننا لاحظنا أمرين نراهما ذوي دلالة غير خفيّة في هذا النطاق . سنذكرهما مع ذكر دلالة كلّ منهما :

ـ الأول : تحوّل فقهاء آل الحرّ فجأة من وطنهم الأصلي " دمشق " إلى سُكنى " بلدة " مشغرة " ، في أقصى " سهل البقاع " من الجهة الغربيّة . إننا نُرجّح بقوّة أن السبب في هذا التحوّل المفاجئ يرجع إلى الاحتلال العثماني(٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م) وما حمله من مناخ جديد . لم يملك أولئك الفقهاء تجاهه إلا أن ينفوا أنفسهم ، إلى حيث يكون حضور السُلطة أ قلّ ممّا هو في المدينة ـ المركز . رغبةً في أ ن ينأوا عن مُضطَرب الأحداث ومركز الحكم . فتحوّلوا إلى أقرب قرية شيعيّة من وطنهم الأصلي ، وجعلوا منها مركزاً من مراكز العلم ، عاش مدّة قصيرة .

ـ الثاني : اختفاء آخر آ ثار النشاط العلمي الذي كان قائماً في المراكز العلميّة المتعدّدة ، اختفاءً فجائياً إ ثر الفتح العثماني . وانحصار الحركة العلميّة التي كانت واسعة الانتشار في بلدة واحدة هي " جُباع " . علينا أ ن نلاحظ هنا ، أ ن كل المراكز السابقة كانت تقوم على أطراف الكثافة ا لسكانيّة الشيعيّة : " جزّين " و " عيناثا " و " ميس " و " الكرك " و " مشغرة " . من هنا فإننا نرى في اختفاء آخر آثار النشاط في تلك المراكز ، وانحصار الحركة العلميّة في " جُباع " ، التي تستقرّ في قلب الكثافة السكانيّة الشيعيّة ، دليلاً لا ريب فيه على الحال غير السّوي الذي اضطربت فيه هاتيك المراكز . إ ن الارتباط بين الاحتلال العثماني ، وما حمله من مُناخ ثقافي جديد ، وبين اختفائها من الأطراف ، وتمركزها في القلب ، لهو في غاية الجلاء . بحيث يمكننا القول دون أدنى تردّد ، إن هذه الظاهرة بوجهيها لهي ارتكاس غريزي على الخطر المحسوس ، وربما الفعلي ، الذي ضاعت أخباره فيما ضاع من تاريخ تلك الأيام ، للأسباب التي عرضناها قبل قليل .

في هذا الجو المضطرب ، الذي ساد فيه القلق ، وسيطر الخوف ، برُز زين الدين بن علي الجُباعي ، بوصفه أعلى شيوخ " جبل عامل " مكانة ، والأستاذ الأول في " جُباع " . هذه البلدة التي دخلت التاريخ بوصفها آخر نبضة في الحركة العلميّة في " جبل عامل " ، التي عاشت حتى ذلك الأوان ما يقلّ قليلاً عن قرنين من الزمان ، ولم يكن هناك ما يضارعها حيويّةً في كل الأقطار الإسلاميّة .

ولقد حمل الشيخ زين الدين في موقعه ذاك أمانة ثقيلة ، هي خلاصة كل ما هو

مجيد ونافع في تاريخ وطنه . وكل ما في سيرته يشهد بأنه لم يُشفق من حمل الأمانة ، بل حملها عالماً عادلاً . عالماً ، فيما وسعه من علم ، جناه من كل المصادر التي كانت في متناوله : من " جبل عامل " و " القدس " و" الخليل " و " القاهرة " ، حيث قرأ على وسمع من عشرات الشيوخ ، دونما تمييز بينهم من حيث المذهب . وعادلاً ، في موقفه المُمَيّز من المسألة المذهبيّة . إذ آمن بأنها مسألة صِرف اجتهاديّة ، لا علاقة لها بالطائفيّة والتطيّف . ودعا كل مَن يريد أن يتمذهب ، إذا وجد ذلك ضرورياً ، أن يمحّص كل المذاهب ، ويختار منها بنفسه مايراه صواباً . كما آمن بأن الفقيه ليس له أن يُفتي في مسالة إلا بعد استقراء تام لآراء جميع الفقهاء . أي أن من واجبه إجراء استقراء شامل لاجتهاداتهم فيها . ولا يكفي استقراء محصور في نطاق المذهب ، كما درج عليه الفقهاء . وكان هو أنموذجاً صادقاً وحيّاً لهذا النهج ، سواء في إعداده لنفسه ، كما أشرنا قبل قليل ، أم في عمله . ومن ذلك أنه أثناء المدّة التي قضاها في " بعلبك " ، وهي سنتان ونيّف ، كان يُدرّس ويًفتي على المذاهب الخمسة ، وفقاً لرغبة الطالب أو المُستفتي . الأمر الذي جعل منه مرجع الجميع على حدّ سواء . ونهجه وتجربته هذه فريدان فذّان في تاريخنا الثقافي . المهمّ أنه بعد أن قضى في " بعلبك " تلك المدّة ، إذا به يغادرها فجأة . مع أنه وصف أيامه فيها ، في السيرة الذاتيّة التي كتبها ، بقوله : " كانت أياماً ميمونة وأوقاتاً بهجة ، ما رأى أصحابنا في الأعصار مثلها " . ولا ذكر نصّاً لسبب خروجه منها . ولكن علّة إغفاله قد تكون أ ن السبب كان في الغاية من الاشتهار في وقته . بحيث لم يجد أحد حاجة للتنصيص عليه . والحقيقة التي لا جدال فيها ، أنه لم يخرج من " بعلبك " إلا لأمر جرى عليه فزعزعه وأقلق باله ، وربما ما هو أكثر . وأن السُلطة العثمانية هي وحدها التي كان بوسعها أن تُلجئه ، بوسيلة أو بغيرها ، إلى مغادرة المدينة التي أحبها وأحبّ أهلها وأحبوه ، وفيها قضى أطيب أيام حياته . وقد وصف تلميذه محمد بن العَودي الجزيني ، في السيرة التي علّقها لشيخه ، تاريخ خروجه من " بعلبك " ، بأنه " خاتمة أوقات الأمان والسلامة . ثم نزل به ما نزل " . وقد فصّلنا الكلام فيما نزل به في السيرة المفصّلة التي علّقناها له في كتابنا (ستة فقهاء أبطال) . وانتهت بسوقه إلى " استامبول " وقتله ، بقرار من السلطان سليمان القانوني ، يوم الخميس أو يوم الجمعة ، أواسط شهر رجب سنة ٩٦٥ هـ / ١٥٥٨ م .

هناك علاقة لا ريب فيها بين ما اختطّه الشيخ زين الدين لنفسه فكراً وعملاً وبين نهايته الفاجعة . التي اهتزّ لها العالم الإسلامي . بحيث ألجأت السّلطة العثمانيّة إلى تدبيج التخريجات التي تبرّئها من الجريمة . ممّا فصلنا الكلام عليه في كتابنا ذاك. ومن الجهة الأخرى ، فقد أدّت إلى حصول الهجرة العامليّة الكبرى باتجاه " إيران " الصفويّة . ذلك أن ثقل الجريمة غير المتوقّعة قد سقط سقوط الصاعقة على مَن بقي من أبناء المراكز العلميّة في " جبل عامل " ، وهم المنهكون سلفاً بما عانوه من صنوف التضييق والملاحقة والمراقبة ، فانطلقوا بالعشرات إلى حيث يأمنون .

هكذا يبدو لنا بكامل الوضوح والجلاء ، أ ن كل ما جرى في سياق إشكاليّة البحث ، إنما هو تأصيل عن مدرستين فكريتين : المدرسة العامليّة ، بما تمتاز به من تمسّك بالانفتاح والحوار وقبول الآخَر ، والمدرسة السلطويّة العثمانيّة ، بما ورثته من سمات ثقافيّة حدّيّة .